حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الكوفة
مدينة العمران

الأستاذ محمد كاظم الطريحي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

حظيت المدن الإسلامية بالمعنيين من الجغرافيين والمؤرخين الذين تخصصوا في الكتابة عن تمصيرها وخططها، ونزول القبائل فيها، والوضع الاجتماعي والاقتصادي، وعدد السكان والأسواق، والحمامات والدور، وإلى ما تحتاجه من الأقوات في كل يوم، وهي لاشك دراسات ميدانية قدمت لنا الكثير من المعلومات عن المدن والمجتمعات السكانية في مختلف العصور.

وكان العرب المسلمون المرتبطون بالعيش في المدن، يفتخرون بالانتساب إلى مدنهم ودراسة تواريخها.

ولو استعرضنا الصفحات التي كانت كتب التراجم تصف فيها الرجال لما وجدنا أحداً وبخاصة بعد القرن الثاني الهجري إلاّ ويلحق بنسبه اسم بلده، فهذا بغدادي أو بصري، وهذا كوفي أو واسطي، وإلى آخره.

وفيما يثبته كتاب الأنساب للسمعاني من هذا النوع من الانتساب المدني دليل واضح.

وكانت المدن لدى العرب بمثابة الركائز التي تستند إليها تلك المؤلفات حتى أن الكثيرين يعتبرون ما كتبه العرب من الكتب الجغرافية كتباً في جغرافية المدن.

ويستطيع المولعون بالإحصاء أن يسجلوا ظهور ما يزيد على مئة وثلاثين مؤلفاً للمدن كتبت فيما بين القرنين الثالث والسابع في مدن المشرق وحده أي ما بين العراق وأقصى الصفد عدا التواريخ المحلية للمناطق كالعراق وفارس وخراسان، وعدا التواريخ المكتوبة بالفارسية، وهي كثيرة ويتعلق بعضها بالتاريخ الإقليمي، وبالذيول لمختلفة، وبعض الحوادث الخاصة، وكتب الرجال وذيولها، والسيرة النبوية، والصحابة، وكتب الطبقات والمتصوفة، وبعضها في سير الحكام، والأنساب، وغيرها من أبواب التاريخ.

إن هذه التواريخ كانت كتب تراجم وقد عنيت بها كل المؤلفات البلدانية كل العناية، وتضخمت بها كل التضخم، وهي لاتعني ما تعنيه اليوم من دراسة المدن، ولكن تلك المقدمات هي الأقسام الهامة التي تعيننا لأنها حفظت لنا خطط المدن ومرافقها ومساجدها وقصورها وشوارعها وأزقتها، فهي شواهد على الاهتمام التمديني وعلى التنبّه لأهميته، والتأليف فيه، ولاتكاد توجد مدينة كبرى في العالم الإسلامي مؤرخة من هذا النوع في وصف الخطط والأحياء.

والاهتمام بالتراث يمثل خلاصة التجربة الواعية ونتيجة المخاض الصعب للشعور بالمسؤولية تجاه المبادئ والقيم العليا التي تحتل في القلوب والمشاعر أسمى معاني الرؤية الصائبة لأداء الأمانة والوفاء للذات المقدسة للأمة على أن هذه اللمحات المتعددة والعابرة قد لاتشكّل كل ما في النجف من مزايا وخصائص إلاّ أنها خطوة رائدة في سبيل تدوين تاريخ المدينة المقدسة في حُلّة جديدة تصطبغ بأنوار الحقيقة.

والتراث كائن حي يتحرك بين الأجيال ماضيها وحاضرها، ويبرز في أبعاده العميقة الغور مصدر إشعاع لبناء كيان جديد يهدف إلى إدامة الصلة الحيّة بما يستقر في رحم التاريخ، وما يتلوَّن في رسومه قديمها وحديثها، وهو سلسلة مترابطة الحلقات ما تنفك قوية صلدة لا تهزها المحن والصعوبات، ولا تمحو صورتها عثرات الزمان، كما أنه لا يختص بزمن محدود، بل هو ظاهرة حضارية ورمز مقدس يمتاز بجذور ممتدة على مدى الأفق الغابر والحاضر يسمو في خاطره الزمن إلى ما يليق من مستوىً حضاري يتصف بالرقي والرفعة.

ولا ينكر أحد ما للتاريخ من الفضل على البشر إذ هو ينقل حوادث الأوائل للأواخر، فإذا سرَّح أحد طرفه في حادثة ما يكون كمن قد رآها وحضر وقائعها وسمع أقوال رجالها.

وكان «هيرودتس» أبو التاريخ أول مؤرخ يوناني ساح في إيطاليا ومصر وبابل وغيرها، ووصف كشاهد عيان عجائب البلدان التي زارها وصفاً شائقاً فاقتدى به سائر المؤرخين من جميع الملل والنحل حتى عصرنا الراهن.

ومن يأخذ على عاتقه مهمة تأليف الوقائع والتراث يلزمه أن يتصف بصفات أهمها المحايدة وعدم الانحياز إلى جهة دون أخرى، متخذاً شعار الحق الأبلج، فيدوِّن الحقائق الناصعة التي لاغبار عليها من العاطفة القومية أو الشخصية، غير منقاد إلى الأهواء والميول الذاتية.

ومن الضروري الاهتمام بالتاريخ العربي والإسلامي، لأنه يعدّ من أهم مقومات كيان الأمة التي تمتلك حضارتها الأصالة الممتدة في عمق التاريخ الإنساني في مختلف أدواره، فمنذ فجر ولادة الأمة العربية وحضارتها الإسلامية وهي تكتنز الرؤى التراثية بملامح ومميزات الأمة، بحيث أن فهم التراث على واقعه واستلهامه على حقيقته يؤدي حتماً إلى نتائج مهمة ومؤثرة على مسيرة المستقبل لأبناء الأمة.

على أننا إذ توسعنا في الجوانب التي ذكرناها ليس لمجرد إثبات تجذر الفكر العمراني وعمقه في الفكر الإسلامي فحسب، وإنما توسعنا فيها لغرض آخر لايقل عن ذلك شأناً وخطراً هو أنها تشكل المصادر أو جانباً هاماً من المصادر التي يمكن أن تغطي دراسة المدن الإسلامية على الوجه الأوفى، ومن وجهة النظر الإسلامية أن سعتها وكثرتها وتنوعها دلائل على إننا في بحث المدينة إنما نبحث عن الروح الإسلامي المدني، وما نقدمه إنما هو بحث في المصادر بقدر ما هو بحث في الجذور.

ومن هنا ننطلق لنطل على واقع تراثنا العريق الذي زخرت به صفحات التاريخ، ولا أدل على ضخامته وسعته وأهميته، إلاّ امتداده في الماضي والحاضر باعتباره أحد المعالم الرئيسة التي تنفذ منها النفوس الخيرة في اتجاهاتها وأفكارها، وكذلك التضحيات الجسيمة التي قدمها أبناء الأمة بسبب شعورهم بأصالة تراثهم، وخدمة للمُثل الرفيعة التي أنشأها هذا التراث في نفوسهم.

ومدن العراق[1] العظيم الغنية بتراثها جزء كبير لايتجزأ من صفحات الحضارة الواسعة الممتدَّة عبر قرون عديدة من تاريخه حتى يومنا الحاضر بما في ذلك الاتجاهات الفكرية قديمةً وحديثةً.

وبالرجوع إلى الموسوعات البلدانية نكتشف جانباً من مسيرة الفكر التمدني خلال العصور الإسلامية وجانب من عمقه ومن عراقته وقدمه وتأثيره في مفهوم الناس لمعنى الحضارة.

---

(١) العراق، قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: إن العراق أعدل أرض الله هواءً وأصحها مزاجاً وماءً، فلذلك كان أهل العراق هم أهل العقول الصحيحة والآراء الراجحة والشهوات المحمودة والشمائل الظريفة والبراعة في كل فن وصناعة مع اعتدال المرابع واستواء الأخلاط وسمرة الألوان. وهم الذين أنضجتهم الأرحام.

خلص العراق للعرب المسلمين بعد واقعة القادسية سنة ١٥ للهجرة الموافق لسنة ٦٣٦ للميلاد على أصح الروايات، واختطوا الكوفة في مكان يسمى «عاقولا» أو في موضع في مواضعها يقال له: «البويب»، وعسكروا فيها سنة ١٧هـ الموافق ٦٣٨م، يتخللها بعض فواصل قليلة آخرها وقعة «جلولاء».

وهو مهبط الأمم الكبيرة، ومنبع العلوم الغزيرة في العصور الماضية، وفيه بنيت القصور الشاهقة وشيدت الصروح السامقة، والحدائق المعلقة وهو جزء من الأمة العربية. جاء في المصادر التاريخية: أن العرب شرعوا في دخول العراق في الأول للميلاد، أي بعد أن دالت دولة الآشوريين والكلدانيين واستولى عليها الفرس واليونان، أما القبائل التي نزحت إليه فكانت قحطانية وعدنانية، أنشأ القحطانيون في القسم الغربي من العراق دولة المناذرة، وجمعوا القبائل العربية تحت رايتهم، وكانوا حلفاء الفرس في الحروب التي أثاروها ضد البيزنطيين، وكانت القبائل تقطن البلاد غربي الفرات ثم عبرت متجهة نحو الشرق إلى أن أصبحت ضفة نهرج دجلة اليسرى الحد الفاصل بين الأقوام الأجنبية والعرب، وسكنت قبيلة تغلب في قسم الجزيرة الجنوبي. أما بعض من بطون بكر تركت منازلها في نجد ونزحت إلى الشمال وسكنت القسم الشمالي من الجزيرة، وفي زمن الفتوح الإسلامية توغلت في جنوبي الأناضول وسمّيت البلاد باسمها وصارت بعد ذلك تعرف بديار بكر، وكذلك قبيلتا ربيعة ومضر العدنانيين فإنهما سكنتا الجزيرة بعد الفتح وسميّتا البلاد باسميهما: ديار ربيعة وديار مضر، وانتشر العرب في زمن الفتوح الأولى إلى الشرق وتوطنوا بعض أقسام بلاد فارس، واستقروا في العراق واندمجوا بأهله الأقدمين، وأصبحت البلاد منذ ذلك التاريخ عربية بدينها وثقافتها يحكمها العرب مدى السنين.

كان العراق في أيدي الفرس الساسانيين وشعوب مختلفة من فرس وعرب وكلدان وأكراد. وأذلت هذه الحروب الساسانيين وعركتهم عركة قطّعت أوصالهم ومزّقتهم أي ممزق، وعاون العرب المسلون جماعات من عرب العراق من الشيبانيين ورئيسهم المثنى، وغيرهم آنئذ في ضواحي الفرات، وفي الحيرة، ومواطن أخرى كثيرة حتى الخليج العَربي «الأُبلة»، وأساساً عهدهم قديم في سكنى العراق فاندغموا في العرب المسلمين سواء منهم من قبل الإسلام، أو من بقيَ على دينه الأصلي وغالبهم آنئذ من المسيحيين النساطرة، والنساطرة التيارية: طائفة من المسيحية ينتسبونَ إلى نسطور بطريك القسطنطينية، قطنوا في منطقة كردستان العراق بين الموصل وأرمينيا. تبدد شملهم بعد الحرب العالمية الأولى فتفرقوا في بلدان شتى، ازدهرت عندهم الحياة الرهبانية فأوفدوا المبشرين إلى آسيا الشرقية منذ فجر القرن السادس للميلاد ومنهم انتشرت النصرانية في فارس والهند والصين. حرّكتهم روسيا القيصرية قبل الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك، ولكنهم لم ينجحوا، ودفعتهم بريطانيا أثناء احتلالها للعراق لمحاربة الأكراد بقيادة آغا بطرس الذي حاول تشكيل دولة آثورية فأخفق، وكانوا مصدر قلق للحكومة العراقية، وكانوا يخضعون إلى رئيسهم مار شمعون الذي تمرد وأتباعه وعرض موضوع انفصالهم على عصبة الأمم بدافع من الإنكليز الذين كانوا يدعمونهم، وكان الملك فيصل الأول في «بون» سنة ١٣٥٢-١٩٣٣، والملك غازي ولي العهد الذي أشرف بنفسه على محاربتهم، وسموا آشوريين، والصحيح آثوريون لأنهم كانوا يعبد ون الثور، لكن الأوربيين لا ينطقون الثاء فقلبوها إلى شين أو سين كما قلبت ثاء آثوريا أيضاً وحولت إلى سوريا.

وإن هذا الإصرار المستمر على كتابة تاريخ المدن من قبل أبنائها يدل على مجرى الفكر العمراني.

وكان من أوائل مؤرخي المدن في القرن الثالث الهجري: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م، وهو أول من صنف في تاريخ بغداد، ولم يبق من تاريخه إلاّ الجزء السادس الذي طبع في أوروبا. وتابعه أبو سهيل الكسروي من القرن الرابع بما وصف في كتابه عن خطط بغداد.

وكتب الخطيب البغدادي المتوفى ٤٦٤/ ١٧٠١ كتابه «تاريخ بغداد» في خمسة عشر مجلداً، وصار هذا التاريخ أنموذجاً يحتذى في كتابة التواريخ المدنية الأخرى. وأهم ما في هذا الكتاب أن صاحبه قدم له دراسة عن بغداد في بنائها وتخطيطها ومساجدها وشوارعها وحماماتها وأسواقها، وتطور الأحياء حولها، فاقبلت الكثير من المؤلفات تقلّد الخطيب البغدادي

ولأن بغداد كانت في ذلك الزمن سرة الدنيا، والمدينة العظمى كان طبيعياً أن تتضخم هذه المؤلفات لتصبح قرابة مئتين وأربعة وثمانين مجلداً، منها خمسة عشر مجلداً كتبها الخطيب البغدادي، وخمسة عشر مجلداً أو عشرون كتبها عبد الكريم السمعاني المتوفى ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م، وحوالي ستة كتبها ابن الدبيثي المتوفى ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م، وثلاثون مجلداً كتبها ابن النجار المتوفى ٦٤٣هـ/ ١٢٨٥م،ومثلها كتبها ابن الساعي المتوفى ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م، وخمسة وخمسون كتبها ابن الفوطي المتوفى ٧٢٣/ ١٣٢٣، وثلاثة كتبها ابن رافع المتوفى ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، ومائة مجلد كتبها ابن المراستانية بعنوان «ديوان الإسلام الأعظم»، ويقولون إنه لم يتمها، وسبعةوعشرون مجلداً كتبها الكازروني المتوفى ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، بالإضافة إلى ما كتبه ابن القطيعي المتوفى ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م، وابن الحبابي المتوفى بعد سنة ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م.

وصدرت عن البصرة، وهي المصر الثقافي التجاري خمسة كتب يتميّز منها كتابان: الأول كتبه عبد القاهر كريزي، وقد ذكر أسواق البصرة، ومحلاتها، وشوارعها، والثاني كتبه ابن شيبة المتوفى ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م، بالإضافة إلى ما كتبه أبو يحيى الساجي المتوفى ٣٠٧هـ/ ٩٢٠م، وابن دهجان المتوفى بعد سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م.

وكانت البصرة في تلك الأثناء الثغرا لأول، وصلة الوصل بين الشرق الأقصى، وبين حوض المتوسط وأوروبا.

أما الموصل فقد حظيت بعشرة مؤلفين بسبب مركزها جغرافياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً منها: تاريخ أبي زكريا الأزدي سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، والخالديين سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، وسنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م، وابن الحبابي سنة ٣٥٥هـ/ ٩١٦م، والشمشاطي سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، وابن الأثير سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، وابن باطيش سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م.

وكتب تاريخ واسط خمسة منهم: بحشل المتوفى ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م، والجلابي المتوفى ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وابن بختيار الواسطي المتوفى ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، وابن الدبيثي المتوفى ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م.

وكتب تاريخ أربيل، ابن المستوفي سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م. وتاريخ تكريت، كتبه ابن سويد التكريتي المتوفى ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م، وابن المفرج التغلبي المتوفى ٦١٦هـ/ ١٢١٩م.

ومن أبرز الجغرافيين الذين تعرضوا لذكر مدن العراق:

١- هشام بن محمد السائب المخزومي المتوفى ٢٠٦هـ/ ٨٢١م.

٢- ابن مردايه المتوفى حوالي ٣٠٠هـ/ ٩١٢م.

٣- اليعقوبي المتوفى ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م.

٤- الرازي أحمد بن محمد التاريخي المتوفى ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م.

٥- ابن حوقل المتوفى ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م.

٦- المقدسي البشاري أبو عبد الله محمد بن أحمد البناء المتوفى حوالي سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م.

٧- إسحاق بن الحسين المنجم من القرن الخامس الهجري.

٨- المهلبي، وهو الجغرافي الأول للفاطميين، وكتابه الضائع «المسالك والممالك» بقيت لنا منه نقول لدى ياقوت الحموي، وأبو الفداء.

٩- أبو العباس أحمد بن القاص الطبي الآملي المتوفى ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م، وكتابه «دلائل القبلة» فيه وصف قلعتي الأخيضر، والخورنق.

١٠- البكري أبو عبد الله ألّف كتابه «المسالك والممالك» حوالي سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م.

١١- الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد المتوفى ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م.

١٢- أبو الفداء ملك حماه عماد الدين الأيوبي المتوفى ٧٣٢هـ/ ١٣٣١.

إلى غير ذلك من المؤرخين والبلدانيين.

ومن المعاجم الجغرافية التي كتبت عن مدن العراق:

١- ياقوت الحموي المتوفى ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، كتب أهم وأوسع وأكبر معجم جغرافي عربي هو معجم البلدان نظمه على الأحرف الهجائية. ولم يقتصر فيه على الجغرافيا بل أضاف إليها معلومات لغوية وتاريخية كثيرة بالإضافة إلى التراجم والحكايات.

٢- الوطواط محمد بن إبراهيم الوراق المتوفى ٧١٨هـ/ ١٣١٨م.

٣- شهاب الدين النويري المتوفى ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م.

٤- ابن فضل الله العمري الدمشقي المتوفى ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م.

٥- شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي المتوفى ٨٢١هـ/ ١٤١٨م.

وصدرت عن الكوفة، وهي المصر الثقافي السياسي، أربعة كتب للهيثم بن عدي المتوفى ٢٠٧هـ[١] هي:

١- خطط الكوفة.

٢- ولاة الكوفة.

٣- قضاة الكوفة.

٤- فخر أهل الكوفة على أهل البصرة.

وأعقبها الكتب التالية:

٥- مفاخرة أهل البصرة وأهل الكوفة: لأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني (١٣٥-٢١٥هـ)[٢].

٦- أخبار الوافدين من الرجال من أهل الكوفة والبصرة على معاوية بن أبي سفيان.

٧- أخبار الوافدات من النساء من أهل الكوفة والبصرة على معاوية بن أبي سفيان.

الكتابان من تاليف: العباس بن بكار الضبيعي المتوفى ٢٢٢هـ[٣].

٨- فضل الكوفة: لعلي بن الحسن بن فضال المتوفى ٢٢٤هـ[٤].

٩- الكوفة وعمارة الكوفة: لعمر بن شبَّه البصري المتوفى ٢٦٢هـ[٥].

١٠- فضل الكوفة ومن نزلها من الصحابة: لإبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي المتوفى ٢٨٣هـ[٦].

١١- فضل الكوفة وقم: لسعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي المتوفى ٣٠١هـ أو ٢٩٩هـ[٧].

١٢- فضل الكوفة وقم: لسعد بن إبراهيم القمي[٨].

(١) الفهرست لابن النديم/ ١٤٦..

(٢) الفهرست لابن النديم/ ١٥٢..

(٣) من مخطوطات الأسكوريال ثاني ٤٦٧ رقم ٥، ٦ (تذكرة النوادر)، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٣/٣٧-٣٨..

(٤) رجال النجاشي/ ١٨٢.وسماه (الكوفة)، وفهرست الطوسي/ ٩٢، ومعالم العلماء ٥٧.

(٥) بروكلمان: ٢/ ٢٤-٢٥.

(٦) النجاشي/ ١٣، فهرست الطوسي/٥، معالم العلماء/٢.

(٧) النجاشي/ ١٢٦، فهرست الطوسي/ ٧٦، معالم العلماء/ ٤٧ معجم رجال الحديث للسيد الخوئي/٥٠٤٩.

(٨) كشف الظنون ١٩٩/٤، وفي فهرست ابن النديم/ ٣١٢، ذكر سعد بن إبراهيم القمي في جملة لاقميين وذكر من كتبه كتاب واحد وهو: تصدير الدرجات.

١٣- الكوفة: لمحمد بن بكران بن عمران الرازي أبي جعفر[٩].

١٤- فضل الكوفة: لأبي جعفر محمد بن أحمد بن خاقان النهدي القلانسي[١٠].

١٥- فضل الكوفة: لأبي العباس أحمد بن سعيد بن عبد الرحمن المعروف بابن عقدة المتوفى ٣٣٣هـ[١١].

١٦- فضائل الكوفة: لمحمد بن علي بن الفضل بن تمام الدُّهقان، كان حياً سنة ٣٤٠هـ[١٢].

١٧- المزار وفضل الكوفة ومساجدها: لأبي محمد بن جعفر بن الحسين بن علي بن شهريار القمي المتوفى ٣٤٠هـ[١٣].

١٨- تاريخ الكوفة: لأبي الحسن محمد بن جعفر بن محمد بن هارون التميمي المتوفى ٤٠٢هـ[١٤] المعروف بابن النجار.

١٩- فضل الكوفة على البصرة: لمحمد بن عبيدالله بن أحمد بن محمد بن سليمان بن الحسن بن الجهم بن بكير بن أعين أبو طاهر الزراري، المولود ببغداد سنة ٣٥٢هـ[١٥].

٢٠- الكوفة وما فيها من الآثار والفضائل: لأبي العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي الأسدي صاحب كتاب الرجال (٣٧٢-٤٥٠هـ)[١٦].

٢١- تاريخ الكوفة: لابن مجالدة - ذكره في الفصل الحادي عشر من تاريخ المشرق[١٧].

٢٢- فضل الكوفة ومساجدها: لمحمد بن جعفر المشهدي - من أعلام القرن السادس للهجرة- تحقيق: محمد سعيد الطريحي. طبع في بيروت ١٩٨٠ - دار المرتضى.

(٩) النجاشي/ ٢٨٠.

(١٠) النجاشي/ ٢٤٠، كشف الظنون ١٩٩/٤، الخوئي ٣٤٩/١٤.

(١١) النجاشي/ ٦٩، فهرست الطوسي/ ٢٨، معالم العلماء/ ١٤.

(١٢) فهرست ابن النديم/ ١٥٩، رجال النجاشي/ ٢٧٢، وسماه الكوفة.

(١٣) النجاشي/ ٨٩

(١٤) تأريخ بغداد ١٥٨/٢، معجم الأدباء ١٨/ ١٠٣-١٠٤. ونقل ياقوت في معجم الأدباء أيضاً ١٥٤/١٤، وسماه الكوفة، ونقل عنه ابن طاووس في فرحة الغري وسماه (المصنف)/ ٧١ - طبعة النجف ١٩٦٣. وسمى مؤلفه بابن النجار. انظر أيضاً كشف الظنون ٢٧٢/١. والذريعة (حرف الكاف رقم ١٠٤٠ ورقم ١٠٤١). هو أحد مصادر إرشاد الأديب لياقوت ٤١٠/١ و٦٩/٣ - ٧٠، ٢٤٥/٤، ١١٣/٥، ٤٦٧/٦. ولسان الميزان لابن حجر ٤١٣/١، ٤١٤، ٤٦٨، ١٤٧/٣، ٢٠٢. وترجمة مؤلفه ابن النجار في كتاب فؤاد سزكين (التدوين التاريخي) ص٢٢٠..

(١٥) رجال النجاشي، والخوئي ٣٠١/١٦.

(١٦) رجال النجاشي (ترجمته بقلمه في رجاله).

(١٧) كشف الظنون ٣٠٢/١.

٢٣- فضل الكوفة وفضل أهلها: لمحمد بن علي بن الحسن بن عبد الرحمن العلوي المتوفي ٤٤٥هـ

تمصير الكوفة:

مرّ زمن طويل والكوفة تُعد أكبر حاضرة في العراق، مرت عليها أدوار شتى من العمران والارتفاع والانحطاط وتُعد من أمهات المدن الشيعية ومازالت قائمة ويخفق فيها علم التشيّع والولاء لأهل البيت عليهم السلام. أنشأها سعد بن أبي وقاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب، وقامت في البداية على شكل معسكر للجند وبعبارة أصح على شكل مضارب خيام وأكواخ للقبائل العربية المُجندة، ثم تحولت بمرور الزمن إلى منتجع ولم تلبث أن نمت واتسعت رقعتها، وكان ذلك مقروناً باتساع الفتوح العربية ناحية الشرق واستقر فيها قرابة نصف الجند من القبائل القيسية التي اتخذت موقعاً معادياً للإمام علي بن أبي طالب، والتحق بعض زعمائها بمعاوية بن أبي سفيان منهم: زفر بن الحارث زعيم قبائل كلاب، ومال معهم أهل الشام، وخالفوا علياً ودعوا إلى الطلب بدم عثمان، أما بقية القبائل اليمانية فإنها أسهمت في مساندة الإمام علي، ومن خلال دراسة الصراع بين القبائل اليمانية والقيسية يمكننا أن نفهم مصائر حركات المعارضة الشيعية في العصر الأموي لأن المسالة القبلية كانت وراء تحول الإمام وإحراز النصر في معركة صفين أولاً ثم إخفاق التحكيم، وفي قيادة حملة جديدة ضد معاوية إلى شهادته في مسجد الكوفة ثانياً.

وكان للقبائل اليمانية والقيسية أصحاب الإمام علي الدور المتميّز في معارك القادسية، واتخاذ الكوفة مسكناً لهم، فصار ذلك من الأسباب لنشر لواء التشيع في العراق، وأوثق عراه فيه هو نهضة الحسين، لذلك نجد العراق أول مصر يلبي دعوة الهاشميين، ولم يكن للأمويين حظ فيه وإن سيطروا أكثر أيام دولتهم، فإنه لم يدخل حب الأموية أعماق قلوب العراقيين أبداً إلاّ البصرة برهة يسيرة.

وما نجحت دعوة العباسيين فيه إلاّ بعد أن كان شعارهم الطلب بدم الحسين، وباقي العلويين. ومما يذكر أن وفداً من المحاربين قدم على عمر بعد القادسية[١]، فلما رآهم قال: والله ما هَيْأتُكم بالهيئة التي ابتدأتم بها. فما غيّركم؟ قالوا: وخومة البلاد[٢]، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص، وقد جمع سعد جنده بعد واقعة القادسية في «كويفة»[٣] ابن عمر، وهي دون «البويب»، أن يبعث رواداً يرتادون منزلاً برياً بحرياً فإن العرب لايصلحها من البلدان إلاّ ما أصلح البعير والشاة بسبب المرعى، وسأل عمر عن هذه الصفة فيما بينهم فأشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب بـ«اللسان»[٤]، وهو ظهر الكوفة، فكتب إلى سعد يأمره به، فارسل سعداً حذيفة بن اليمان في شرقي الفرات، وسلمان بن ربيعة الباهلي في غربه حتى أتى «الأنبار»، ويبدو أن الأنبار أعجبت سعداً، وأراد أن يتخذها منزلاً، فكثر على الناس البعوض فتحول إلى موضع آخر فلم يصلح، فدلوه على أرض تدعى «سورستان»[٥] فانتهى سعد إلى موضع مسجد الكوفة[٦]، وجعل مرمى السهم من هذا الموقع[٧]، وهي حدود الابتعاد عنه، ثم علّم دار إمارتها ومسجدها، وأسهم لأصحابه فيها فصارت خطط أهل اليمن في الشرق، وخطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات التي حددها، وترك ما دون العلامات.

قال ابن عباس: كانت منازل أهل الكوفة قبل أن تبنى أخصاصاً من قصب إذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها، وإذا عادوا بنوها، فكانوا يغزون ونساؤهم معهم، فلما كانت في أيام المغيرة بن شعبة بنت القبائل بيوتها من اللّبن من غير ارتفاع، ولم يكن لهم غرف.

وفي تسمية الكوفة أقوال عدة وكل قول منها يختلف عن الآخر مما يدعونا إلى أن لانركن إلى هذه الأقوال، ولا نعتد بأحدها بل الذي نراه أن اسم الكوفة ليس مشتقاً من كلمة عربية وإن اتفق لفظها مع معنى التكوف أي التجمع لأن الغرض الأصلي من تأسيسها كما قيل: أن تكون قاعدة عسكرية تتكوف فيها الجنود أي تتجمع، ولذلك قيل: كوفة الجند وبهذا الاسم سماها الشاعر عبد ه بن الطيب، قال:

إن التي وَضَعَت بيتاً مُهاجِرةً
بكُوفَةِ الجُند قَدْ غالَتْ بِها غُولُ

---

(١) القادسية موضع على الطريق الذي يصل العراق بالجزيرة العربية يبعد حوالي ١٥ميلاً عن الحيرة، وكان الفرس بنوا في هذا الموضع قلعة عرفت باسم بانيها «قُدَيس»، وعلى يسار الطريق ويمينه وديان ومجرى نهر صغير يعرف بالخَصُوف، أما العتيق فهو موضع منخفض يعتقد أنه المجرى القديم لنهر الفرات وقعت بقربه معركة القادسية بين الجيوش الإسلامية والفرس ابتداءً من يوم الاثنين ٦محرم سنة ١٥ للهجرة الموافق ١٩ شباط سنة ٦٣٦ للميلاد.

(٢) تاريخ الطبري، ج٤ ص٤٠.

(٣) الكويفة: تصغير كوفة تنسب إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب فنزلها، وهي بقرب «بزيفيا»، معجم البلدان – ج٤، ص٤٩٦.

(٤) كانت العرب تقول: أدلع البرَّ لسانه في الريف. فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط بين الحيرة وبحر النجف، قال في معجم البلدان المصدر السابق: اللّسان في أرض العراق، والسواد: هو كنية لأرضه لما يرى في الريف من تكاثف إخضرار الأشجار والنخيل، والعرب تسمي شديد الاخضرار أسوداً.

(٥) تقع من الجنوب والغرب على كتف البادية «الهضبة الغربية».

(٦) فتوح البلدان للبلاذري، ص٢٣٨، وتاريخ الطبري، ج٤، ص٤١.

(٧) ولى سعد تخطيط الكوفة إلى السائب بن الأقرع وأبا الهيجاء الأسدي.

جاء في تاريخ النساطرة: أن الكوفة كانت تسمى «العاقولا» قبل بنائها، وإذا رجعنا إلى كلمة «عاقولا» الكلدانية نجد معناها آرامي بمعنى: عوجه، فتله، والذي نعتمده من الأقوال أن كلمة «الكوفة» مأخوذة من المفردة السريانية «كوبا» بمعنى الشجر الحمضي الذي لاتزال تزدهر به شواطئ الفرات، وسميت باللغة الفهلوية «سورستان» لاستدارتها، ولاجتماع الناس فيها[1].

وقد اختصت في علوم الدين، وفيها فتحت أكاديميتا «سورا» و«بومبديتا» أبوابهما، وجرت العادة على تسمية رؤساء هاتين الأكاديميتين بالغائونيم، وقد استمرت فترة الغائونيم حتى عام ١٠٣٨م، وتولى رئاسة أكاديمة سورا حوالي اثنين وخمسين غاؤناً في الفترة بين عام ٥٩١ و١٠٣٧ للميلاد، في حين ترأس أكاديمية بومبديتا حوالي تسعة وأربعين منهم، وقد توافد الطلاب على هذين المعهدين الدينيين من جميع أنحاء البلاد، ودأبوا على دراسة التلمود وتفسيره، والتعمق فيه حتى أصبح هذا الكتاب مجموعة القوانين المعمول بها في الجالية[2].

وكانت فيها مدرسة سريانية عرفت باسم «مدرسة عاقولا» بقيت إلى عهد الرومان الذين احتلوا العراق، وقد انتقلت إليها الدراسات اليونانية، ولما اندرست عاقولا نهضت الحيرة واجهة كبرى للآداب والأفكار المبثوثة بين الحيرة وما حولها من الديارات والكنائس، وانتقل ما في الحيرة إلى الكوفة، ثم انتقل ما في الكوفة إلى النجف الأشرف.

ومنذ ذلك الوقت تأتي أهمية مدرسة الكوفة العلمية التي ظلت لفترة تعبيراً عن اتجاه فلسفي في الفكر الإسلامي أرساه ورسخ قواعده الإمام علي(عليه السلام)، وقد جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل، ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام، ومن هنا ابتدأ النظر والتأويل الفلسفي في الفكر الإسلامي بمدرسة الكوفة العلمية وبعصر الإمام علي، وهو ذات العصر الذي شهد بدايات وأصول كل الفرق الإسلامية من شيعة وخوارج وأمويين إلى القائلين بتناسخ الأرواح، وكثير من المعتقدات والفرق التي مايزال استمرارها قائماً إلى يومنا هذا، وامتاز جمهور الكوفة بمواهبه الخاصة التي تفوقت في مضمار العلوم العربية والإسلامية قبل أن ينقضي على إنشائها نصف قرن، ونسب إليها النحو الكوفي وأحد الخطوط العربية وهو الخط الكوفي الشهير، وظلت عامرة بالحياة زاخرة بالعمران حتى تاسيس بغداد وانتقال عاصمة الخلافة العباسية منها إذ بدأت بفقدان كل ما كان باقياً لها من مكانة سياسية وإن ظلت لها مكانتها العلمية المعروفة حتى القرن السادس الهجري.

وبعد ظهور القبر المطهر للإمام علي، وكثرة الحوادث والفتن وغارات القبائل المجاورة عليها، انتقل منها الناس إلى النجف وبغداد وحواضر إسلامية أخرى، وكان فيهم جمهرة من الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأئمة اللغة والنحو ورواة الشعر والأدب.

وقد شهدت أرض الكوفة جميع الحركات الشيعية والفِرَق المذهبية التي استهدفت تغيير السلطة الأموية بواسطة السلاح، ولاشك أن هذه الحركات والفِرَق قد طورت حزب الشيعة وحولته من حركة سياسية محضة لها أسبابها الاقتصادية والاجتماعية إلى حركات ذات محتوى عقائدي وديني، ومن المعروف أن الوسط الذي قامت فيه حاضرة الكوفة كان وسطاً عميق الجذور في التاريخ، وله مواريث الحضارة البابلية والحضارات التي قامت في الجزيرة العربية وما جاور العراق من ممالك وحضارات عريقة فكانت «بابل» و«سورا» وحواليهما معقل العلم قبل الإسلام وبعده ومركز الاصطكاك العقلي بين مفكري الأمم الهنود والإيرانيين من الشرق، والسريان والآراميين من الغرب منها امتزج الغنوص الشرقي مع النبوءات السامية.

وعندما تحولت الكوفة من معسكر إلى مدينة سكنها الناس من أهل العراق والحجاز واليمن والجزيرة العربية، واتخذها أمير المؤمنين علي عاصمة لخلافته ومنطلقاً لشيعته ومسكناً له ولصحابته، ومن ثم اتخذ من الذكوات البيض التي هي النجف مدفناً، وفي مسجدها وعلى منبرها القائم بموضعه المنبر الحالي كان عليه السلام يلقي خطبه ومواعظه وجواباته التي جمعها فيما بعد الشريف الرضي محمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٠٦هـ في مجلد سماه «نهج البلاغة».

وكانت الكوفة تتصف بمزيتين:

أولاهما: ولاء معظم أبنائها لآل البيت.

وثانيهما: كونها موطن الثورة الدائمة في العهد الأموي.

أما العصر العباسي فكانت منكفئة على ذاتها لأن الحكم العباسي لم يكن أقل جوراً وتعسفاً من الحكم الأموي الذي وضعها تحت رقابة صارمة، وفرض عليها نوعاً من الحكم العسكري الصارم حال بينها وبين ما كانت تصبو إليه من إعادة الحق إلى نصابه، ولكن الكوفة ظلت على الرغم من ذلك موطن الثورة الروحي.

ومن طريف ما يذكر أن المنصور العباسي أنشأ سوراً وخندقاً في سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م، ولم يكن المنصور يريد أن يسوي بين المصرين البصرة والكوفة، فلم يكن هناك ما يهدد

---

(١) تاريخ النساطرة نشره المطران آدي شير في مجلة (باترولوجيا أوربا تتالسي) سنة ١٩١، ص٣٠٥.

(٢) دليل الراغبين – المعجم الكلداني العربي للمطران يعقوب حنا – الموصل، ص٣٢٤.

الكوفة ولكنه كان يريد عقوبة الكوفة لتشيعها وقرب خطرها من بغداد وضرورة ضبط أمرها، ومراقبة الداخل والخارج منها، ولم ينفق على العملية التحصينية فلساً واحداً ولكنه جمع التكاليف بطريقة طريفة من أهلها، إذ أمر بقسمة خمسة دراهم على أهلها يريد أن يعلم عددهم، فلما استوفى الإحصاء فرض عليهم أربعين درهماً. فقال شاعرهم:

يـــا لِقَـــومِي مـــا لَقِينـــا
مِـــنْ أَمِيـــرِ المُؤمِنينـــا
قَـــسَمَ الخَمْـــسَةَ فِينـــا
وَجَبانـــا الأَرْبَعِينـــا

وأمر بإنفاق المبلغ الذي اجتمع له على بناء سور الكوفة وحَفرِ خندقها اللذين كانا يحددان حدود المدينة ويوقفان إتساعها العضوي السابق، ويميلان بها إلى الاستدارة.

وقد لعب خندق الكوفة دوراً أهم من سورها، فقد كان قناة محصنة وعليه الجسور إلى دروب المدينة وجعل منها بلداً يطيف به الماء بدل الصحراء. وقام للكوفة نتيجة لذلك أرباض كربض عيسى بن موسى، وربض الكناسة، وأضحت المدينة بذلك كلها مدينة إسلامية تقليدية.

الكوفة الحاضرة:

الضفة الغربية:

ابتدأ بناء الكوفة الحاضرة ببناء المساكن بالبردي والقصب والسعف على شكل أكواخ سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م على الضفة الغربية حيث ولدت أور، وبابل، وبغداد فوق أذرع الفرات، فبلاد سومر في الألف قبل الميلاد، كانت تمتد فوق المنحدرات الجبلية والسهول المنبسطة للفرات، أما بابل وأور فتحمل اسم الجزيرة لكونها واحات تنتشر فوقها أشجار النخيل، وكانت تشكل صلة وصل بين بلاد الشام وبلاد الهند والسند، وتطور البلدة بهذه السعة حصل بعد أن قامت الحكومة العثمانية سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م بقطع الفرات ببحر النجف[1] الذي تم جفافه سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٥م، وأسرع التجار لشراء الأراضي وبنيت فيها الدور والخانات والحمامات، وعمرت المساجد وطمت المستنقعات ونصب جسر على الفرات من السفن الخشبية على الصورة المعروفة في العصر العباسي.

والكوفة الحالية تبعد عن الجامع الأعظم التاريخي مقدار نصف ميل، وفيها يقع مقام مشيد على الفرات ينسب للنبي يونس بن متى للشهرة والتلقي، ويليه مسجد الحمراء الذي كشف عنه التراب ووجد المحراب الأصلي وهو تحت المحراب الذي فيه اليوم، وأدخل هذا المسجد بحدوده القديمة داخل البناء الجديد سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م وجعل لبابه القديمة رسماً تحت درج سطح المسجد، ثم أضيف إليه مما يلي الشرق مقداراً واسعاً كان مستنقعاً من ماء الفرات، فالقي فيه التراب وطم وصار مأوى للزائرين والمسافرين، وفي أوائل سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م أزيل البناء القديم وقبة ومقام النبي يونس لإعادة بنائه مجدداً ولم يتم ذلك؟

وفي سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م مدَّ خط الحديد بين النجف والكوفة لتسير عليه عربات تجرها الخيول لنقل المسافرين والبضائع التجارية، وبعد توفر السيارات في ١٧ جمادى الثانية ١٣٧٣هـ/ ١٣ شباط ١٩٥٥ أستغني عنه، وللسيد مهدي بن السيد محمد البغدادي المتوفى سنة ١٣٢٩هـ قوله مؤرخاً:

خليفـــــةَ اللهِ فينـــــا
سَـــلمْت عبـــد الحَميـــد
سَـــعيتَ أفـــضلَ سَـــعي
قَربَـــت كَـــلَّ بَعيـــدِ
لِكُوفَـــةِ الجُنْـــد شـــادَت
مَحَجَّـــةً مِـــنْ حَديـــدِ
بـــاربع أرخوهـــا
«فـــي خَيـــر عَـــصر حَميـــد»

وللوالد الشيخ كاتب ابن الشيخ راضي الطريحي المتوفى سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م مؤرخاً أول عربة سارت على الخط الحديدي «الحيدرية»، ومهنئاً وكيل مدير ناحية الكوفة آنذاك حمدي الباججي بقوله:

سارَتْ كَوَمضِ البَرقِ تَزهو بالفَضا
مَغرورَة بالحُسنِ بين الناسِ
فليهنَ فيها «الباججي» فإنها
وَعُلا أبيه لَطيفَةُ الأجناسِ
جادَ الزَمانُ بِها بابهى حُلَّة
فالحيدريّةُ نُزْهَةُ الجُلاّسِ

وفي عام ١٣١٥هـ/ ١٩٣٢م، تأسس لأول مرة مشروع الكهرباء الذي جلب مكائنه محمد جواد عجينة.

وفي عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م مُدَّت أنابيب الماء في الشوارع.

(١) يقع بحر النجف من جهة الجنوب الغربي من المدينة في بقعة رملية على جانب البادية من بقايا الترسبات، وقد جفت مياهها ولم يبق منها إلاّ مكانها في أرض منخفضة حيث كانت مياه كثيرة جفت تدريجيّاً من زمن طويل ولم يبق إلاّ آثارها، تبتدي من نهر الفرات عند أبي صخير وتنتهي فوق المدينة عند كهوف تظهر طبقات الأرض منها تسمى الطارات باصطلاح الأهالي، وبها تظهر آثار التعرية والتآكل نتيجة ظروف طبيعية.

الضفة الشرقية:

أما الضفة الشرقية بنيت عليها مضارب عشيرة آل ماضي وهم من بني مالك القبيلة العربية الكبيرة القاطنة بعض أفخاذها على ضفتي الفرات منذ أقدم الأزمنة، وكان لهم شأن واعتبار في الفرات الأوسط في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري، أما اليوم فهم من فروع قبيلة بني حسن يقال لهم بنو الحسناء، وهم قبيلة ضخمة تكونت من مجموع تحالف قبائل تنزل على عدوتي فرات الهندية من السدة إلى تحت الكوفة، وفي جانب من أراضي الشامية، وهم عشائر الهور المعروف بهور الدخن، وبنو حسن هؤلاء ينقسمون إلى أربعة عشائر، وهم:

١- الجراح: وهم ململمة قبائل.

٢- الجباس: وهم ململمة قبائل.

٣- البوعارضي.

٤- آل عيسى: بطن من آل فضل من عرب الشام من آل ربيعة من طي، وهم بنو عيسى بن مهنا بن مانع بن جديثة بن عقبة بن فضيل، وفيهم الأمرى، وهم إحدى العشائر الفراتية المشهورة.

وللشيخ محمد بن يونس بن الحاج راضي الشويهي الحميدي الربعي النجفي الأصل والمسكن المتوفى في العشرة الرابعة من المائة الثالثة عشرة تخميناً في النجف قصيدة في مدح أحد رؤساء البوماضي الشيخ خطل، ذكر فيها أسماء مشايخ العشيرة منها قوله:

يتيه جَلابيبَ الفخارِ بفتية ... لَهمُ نَسَبٌ في النّاسِ أعلى المَناسبِ

فَمنهمْ «نَذيرٌ» ثُم «سَيفٌ» و«خَنْجَرٌ» ... كَذا آل «إبراهيمَ» خَيرِ العَصائبِ

فَمُذْ ماتَ «إسماعيلَ» إذْ جاء «أخْطَلُ» ... إلى الكَوْنِ مِنْ صُلبٍ لَهُ وَتَرائبِ

فَطُوباكِ يا أرضَ العراقِ وكُوفَة ... وَطوباكَ يا «تَلّا» حَصينُ الجَوانبِ

فَتيهاً فِخاراً آل ماضي ابنُ كِنْدة ... بقَتالَةٍ قَوْمٍ لليعاريبِ غَالبِ

والكوفة بمسارها عبر التاريخ قاعدة الارتكاز للمثلث الحضاري الذي تمثل إحدى زوايا مثلث النجف والحيرة. والحديث عن مدينة الكوفة الحالية شيّق وجميل، ولدت فيها سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م، وترعرعت بين جنباتها.

بلادٌ بها حَلّ الشَبابُ تَمائِمي ... وأولَ أرضٍ مَسّ جلْدي تُرابَها

* * *

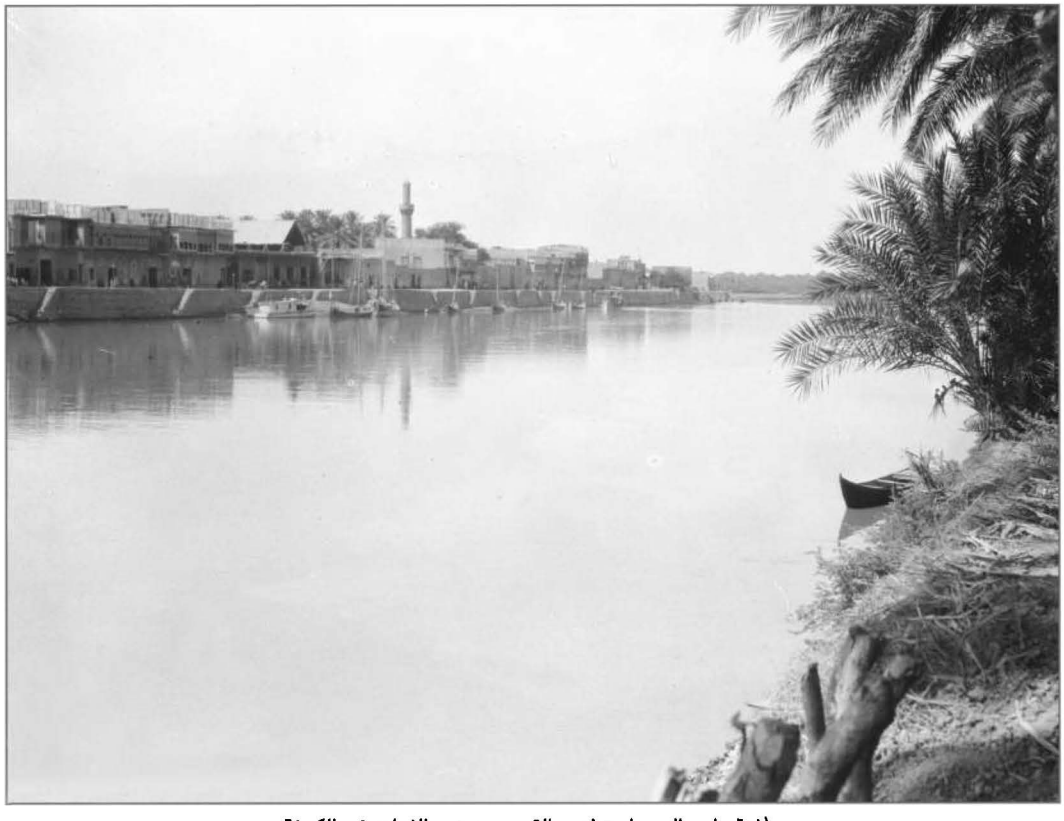

مأذنةجامع الحمراء تظهر بالقرب من نهر الفرات في الكوفة